طرز بلغات متمازجة

آن كيريان ترجمة: خالد ولد قاسي

لست فرانكوفونية، فأنا لم أنشأ على الفرنسية بل تعلمتها. عندما أغني وحدي في الشارع بعيدا عن آذان والدي وأبنائي وأخواتي وبعيدا عن الفرنسيين تخرج من فمي أصوات ترتفع في الهواء قبل أن ترتطم بالأرض مزينة بأحرف روسية أو من اللغات المتوسطية، المؤنث فيها ينتهي بحركة a. المرأة هي a. حركة تضاف لحروف اللغات المتوسطية وتجبرها على الحب. وبينما الحال كذلك، تؤدي عائلتي التي أصبحت فرنسية منذ أجيال دور الحارس: إياك من التصرفات التي تثير استهجان الناس، لا تحسبي نفسك أجنبية، فأنت فرنسية وستظلين فرنسية. لقد خضعت للاستعمار وعليك أن تتقني لغة المستعمر. كان علي أن أكون تلميذة نجيبة ومتألقة وأن أكون خاضعة خضوعا يكاد يكون كاملا. وفي كلمة "يكاد" يكمن الاختلاف الطفيف، وهو ليس الاختلاف بين الجنسين بل الاختلاف بين المهيمن والمهيمن عليه الذي يتعرض للإبادة بحق القانون، أو بالأحرى الاختلاف بين الخضوع ورفض تلك الإبادة، الاختلاف الذي يدخلنا في العالمية بمفهوم "الكل - العالم" الذي صاغه الكاتب المارتينيكي إدوار غليسان، حيث كل اللغات تتآخى وتتساوى ويرقص بعضها مع بعض: التغايرية اللغوية hétérolingualité أو التغاير اللغوي hétérolinguisme.

قد يبدو للوهلة الأولى أن الورشة التي نظمها ستيفان نوفوتني وبيرغيت مولر في مختبرات أوبرفيلييه بشأن موضوع التغاير اللغوي جمعت بين مشاركين من آفاق شتى، أي شرائح مختلفة من المجتمع الفرنسي يجمعها هذا المفهوم لكن دون أي ممارسات مشتركة. كان من الممكن أن نقع في فخ التجريد المتمثل في استخلاص خطوط تتلاقى من ممارسات مختلفة لمفاهيم يفترض أنها مشتركة، مانحين المعارف المركزية المفترضة قيمة لغوية مضافة يمكن تصديرها إلى أرضيات أخرى. ثمة عاملان سمحا لنا بتجنب الوقوع في هذا الخطأ الشائع ارتكابه في الملتقيات الجامعية: أولا، قابلية المنشطين في الاستماع للمشاركين وعدم طرح فرضيات مسبقة، وثانيا، العلاقة بين المشاركين التي كانت مسبقة لكنها لم تكن معروفة، فقد كانت تربط بين كل مشاركين اثنين أحداث سابقة ما زالت تبعاتها إلى الأن. وهذا الوضع ذكرنا بمفهوم "الجذمور" الذي صاغه دولوز مع غاتاري، أي تنظيم ذو مستويات متعددة تحت الأرض كان يؤدي إلى مضاعفة المسائل المطروحة في الملتقى التي كانت تجنبه التركيز على تعريف يصلح لكل شيء، وبالتالي ظل الملتقى مفتوحا عند اختتامه.

تزعزع الهوية

عند التخاطب مع المهاجرين في فرنسا فإن التغاير اللغوي لا ينجم عن عدم القدرة على فهم اللغة اللتي يتحدثون بها وعدم القدرة على التحدث إليهم بلغتهم فحسب بل هو ناجم أيضا عن كون المتحدث يجد نفسه مدفوعا إلى أن يستخدم في لغته المفترضة تعبيرات يتمنى لو أنه نسيها عندما يتلفظ بها ويكتشف أنه يحمل إرثا تركته له أجيال عديدة من أسلافه الذين خضعوا للاستعمار ولا يستطيع التخلص منه. وكلما زادت رغبتنا في التعامل مع المهاجرين شعرنا بواجب القيام بدور الوسيط لكن، بطبيعة الحال، دون أن نضطر إلى تجاهل انتمائنا إلى المجتمع الذي يفوضنا للقيام لهذا الدور. ما يجعلنا عالقين في دوامة بين الخدمة والخضوع لا نتخلص منها إلا عبر قطيعة شبه كاملة مع الماضي. دوامة الترجمة التي لا تتمكن من تجنب الخيانة التي تندفع نحوها.

إن الأجنبي العابر، سواء كان أجنبيا بالجنسية أو أجنبيا من الداخل، هذا الشخص الذي يخشى أن يكتشف الآخرون اختلافه يتعرض تخاطبه الشرطة أو الرأسمالية أو الأدب ويجد في هذا المخاطبة وسيلة له للتمسك بالجذور، التمسك بالهوية. وكل من يساهم في هذا التحول، كل من فوضت له سلطة التغيير، يخضع بنفسه إلى هذا التزعزع الذي قد ينقص الشعور به أو يزيد، أو ربما قليلا ما يشعر به، تزعزع يشعر به أولئك الذين يحولونه إلى أدب أو فن.

المخاطبة تتم أولا وقبل كل شيء عبر إيماءات

إن المخاطبة ليست مثلية اللغة بل ممتزجة اللغة دائما بين طرفي خط السلطة. فيتساءل أحدهم ما إذا كان اختلاف الآخر سيسمح له بفهمه، أما الآخر فيدرك بسرعة أن حظوظه في التخلص من ورطته ضئيلة إن لم يستسلم. وقد تدل سرعة إدراكه على قيمة الشخص الاقتصادية في سلالم الرأسمالية. لكن تعدد تلك السلالم هو في نظري أكثر أهمية من كونها مجرد مقاييس للسرعة أو المال. لا أعتقد أن الشخص المخاطب ومن يخاطبه يوجدان في وضعية ترجمة، وضعية نقل لغة الأول إلى لغة الثاني. فالمخاطبة هنا تتم أولا وقبل كل شيء عبر إيماءات لا يرافقها الكلام، إيماءات يفهمها الجميع حول العالم، حيث الهيمنة تتجلى في المبادرة والنبرة التي تنم عن التهديد أكثر مما تتجلى في صراحة المضمون. إن الشخص الذي ينتمي

إلى مؤسسة تملك السلطة يكون أكثر ميولا إلى استخدام المخاطبة بما أنه مكلف بذلك لكن بعض الأشخاص المناضلين أو غير الجادين لا يترددون في قلب الوضع مع ما يترتب عن ذلك من نتائج سلبية وممارسات شريرة لا تخفى على أحد.

التغاير الاجتماعي يحل محل التغاير اللغوي

كان كل المشاركين المجتمعين في أوبرفيلييه يتحدثون بالفرنسية، حتى النمساويون القادمون من المعهد الأوروبي للسياسات الثقافية التقدمية eipcp، فلم يكن هناك تمازج لغوي بأتم معنى الكلمة وإن كانت العديد من لغات العالم حاضرة بصفة ضمنية كالعربية التي نعرف تعدد أشكالها الحقيقية ولغات أمريكا اللاتينية واللغات الإفريقية، لكن الغريب في الأمر أن اللغات الأسيوية لم تكن حاضرة. وظلت هذه اللغات في الخلف، وراء الجدران المحيطة بالمجموعة كقماش الخيمة. كان موضوع الحديث التغاير اللغوي في الضواحي الفرنسية، حيث تقطن جماعات مهاجرة عديدة، بعض أعضائها، ولا سيما النساء، يفترض أنهم لا يتحدثون الفرنسية. لكن فرقتي أوبرفيلييه الشابتين، ليزانغرينور Les Engraineurs وموزيك أفونير Musik à venir هي فرقتان ناطقتان بالفرنسية إلا أنهما تهتمان بثقافات البلدان الأصلية من الناحية الأخلاقية والعادات الاجتماعية أكثر مما تهتمان بالجانب اللغوي فيها. وتحاول فرقة ليزانغرينور في العديد من الأفلام التي صورتها أن تبين كيف أن الثقافة المحلية وثقافات البلدان الأصلية لا تعالج المشاكل ذاتها بطريقة واحدة. وأكثر الأمثلة إثارة لاهتمامي هو ذلك الولد الذي تم توبيخه على عمله الرديء والذي طلب منه المعلم أن ينظر إليه في الوجه عندما يخاطبه أحد بينما يطلب منه والده أن يخفض عينيه عندما يوبخه أحد. هذا مثال عن مفهوم التناشز المعرفي dissonance cognitive الذي صاغه علماء الاجتماع والذي يفسر حالات عدم الفهم والانسداد الذهني والتأخر. بفضل الممارسة الجماعية المتمثلة في تصوير هذه الاختلافات الثقافية عبر مشاهد خيالية تبين قدرة السنمائيين الشباب على عرض ما يلاحظونه في شكل أفلام خيالية لا عبر أفلام وثائيقة موجهة للمدرسين وغيرهم من العاملين في المجال الاجتماعي يتمكن السينمائيون الشباب من التدرب على ملاحظة الاختلافات وتصويرها في مشاهد سينمائية. وبينما تثير تلك الأفلام الضحك لدى المشاهدين تجعلهم يدركون التغاير الاجتماعي الذي يفسر خيبتهم. لكن التغاير الاجتماعي ليس المصدر الوحيد لتلك الخيبة، إذ هناك أيضا الكثير من مظاهر عدم المساواة التي تراكمت عبر الزمن في أحداث أليمة وغير معروفة. سمح الفيلم الذي يتحدث عن قمع مظاهرات الجزائريين في باريس عام 1961 باسترجاع ذاكرة تلك الجالية ويعيد لها كرامتها.

أما فرقة موزيك أفونير فهي أيضا تتألف من شباب من أوبرفيلييه وتهتم بالتعبير الموسيقي والغنائي. وهي فرقة تسمح للشباب بتقديم عروضهم الغنائية على طريقة السلام أو الراب في باريس وضواحيها وتمنح لهم فرصة للترقي كبديل للمدرسة ومدارس التدريب المهني التي عادة ما ترتبط بالإخفاق. إن لغة التعبير المشتركة بين المهاجرين ذوي الأصول المختلفة هي الفرنسية التي يستعينون بها للتعبير عن تجارب شتى، قد تتعلق بتجارب الأسرة أو الجماعة أو بالمعاناة من الوصم والتمييز اللذين ينبغي الكفاح ضدهما. ويقترح المنشطون-الموظفون الاجتماعيون على الشباب مواضيع تربوية مثل الوقاية من الإدمان بمختلف أشكاله. ويركز التدريب في فرقة موزيك أفونير، إضافة إلى الكتابة، على الإخراج والقدرة على التعبير أمام الجمهور ومواجهة حالة ملموسة من التغاير اللغوي ذات مرجعيات شتى ومجهولة، وإن ظلت الفرنسية لغة التعبير. مشكلة المجهول في التعبير اللغوي الانتقالي من الهيمنة إلى الحرية يشدد عليها الشاعر المارتينيكي إيدوار غليسان[1]. وهو لا يستخدم مصطلح التغاير اللغوي بل مصطلح التهجين اللغوي créolisation التي يسعى بواسطتها إلى التعبير عن حالة التحول التي تمر بها اللغة، وهو ما تؤكد عليه فرقة موزيك أفونير في عنوانها : هناك تهجين في الممارسة اللغوية بين عدة لغات عندما ينتج عن تلك الممارسة، التي تدخل في مجال الشعر، شيئ لم يكن متوقعا أي شيئ مبتكر. وفي المقابل، فإن التغاير اللغوي أو الاختلاط، وفقا لإدوار غليسان، عبارة عن ملاحظات موضوعية يمكن قياسها ولا ينتج عنها أي شيء غير متوقع. إن الغرض الوحيد من الاختلاط هو تحقيق تمازج متساوي على نحو كامل بين عناصره لكنه خال من كل إغراء.

الضاحية محل للتجارب الجمالية في التغاير اللغوي

لا يتحول التغاير اللغوي إلى تهجين لغوي وإنتاج فريد لـ "عالم في مجموعة" مشترك إلا عبر عمل فني سواء كان مهنيا أو كهواية، وعبر مساهمة مسار حياة معين في الإنتاج، مهما كانت المواد المستخدمة في هذا التعبير. في المجتمعات المعاصرة التي تضم جماعات سكانية من أصول متعددة أصبحت الممارسات الفنية المبنية على التغاير اللغوي، الممارسات الفنية المعبرة وغير التمثيلية، ظاهرة محتملة بصفة متزايدة ومرغوبا فيها للتأكيد على مكانة تلك الجماعات في المجتمع. إن

[1] Edouard Glissant, *Introduction à une poétique du divers*, Gallimard, Paris 1996 ; et *Traité du tout-monde*, Gallimard, Paris, 1997.

الأماكن التي تلتقي فيها هذه الممارسات الفنية الجديدة التي تتخذ الصوت أو الصورة وسيلة للتعبير هي أحياء المدن الكبرى حيث ينتشر التغاير اللغوي بين السكان أكثر من أي مكان آخر، وهي ما يطلق عليها في فرنسا الضواحي أو الأحياء الشعبية. كيف يمكن إحياء ذلك الفضاء الذاتي الذي ينشأ في اهوة الموجودة بين اللغة التي يشترك فيها المهيمن والمكافح من أجل البقاء وبين العوالم التي تدب فيها الحياة أو المثيرة للدهشة الموجودة في الذكريات العائلية أو الحكايات التي تحكى للأطفال؟ كيف يمكن إبعاد اللغة المهيمنة عن دورها القمعي وفك ارتباطها بالآلام؟ إن قلب اللغة للتعبير عن الآلام وما تحتفظ به الذاكرة وما يخضع للقمع فيه مصلحة مشتركة بين الشباب والمدرسين أو المنتخبين. ولن تكون الضاحية مكانا للوحدة والانعزال بل مكانا للمسرح وللفكاهة. هذا ما نشعر به عندما نشاهد أفلام فرقة ليزانغرينور.

إن كرامة الموسيقيين والسينمائيين الشباب تنسينا أن الضاحية هي أيضا مكان لا يخضع لسيطرة القانون ولا مواطنة فيه للأولياء الذين أقصتهم جنسيتهم الأجنبية من حقهم في الديمقراطية، الحق في اختيار حكامهم. حق أصبح الشباب يتجاهلونه من كثرة ما تناسوه بسبب بعد السياسيين عن جماعاتهم السكانية. لن يصبح اتخاذ الفن كوسيلة للتعبير بديلا عن المشاركة الديمقراطية، لكن في المقابل قد تؤدي مقاطعة الانتخابات، وخاصة في سياق الأزمة المالية، إلى تبرير التخلي عن دعم النشاطات التعبيرية. هل التغاير اللغوي هو الذي يجعل المشاركة صعبة؟ هل يعيش الشباب والسياسيون على كوكبين مختلفين؟ كوكبين اجتماعيين من المؤكد انهما مختلفان بقدر اختلاف القدرة الشرائية بين 1000 يورو و5000 يورو وكل ما يترتب عن ذلك. كوكبان لغويان، لا: كما أشار إليه أحد المغنين على طريقة السلام، إذا تحدثنا بطريقة الفيرلان Verlan هذا يعني أننا قادرون على التحدث بالفرنسية وإذا كنا نسرع في قلب اللغة الفرنسية فهذا يعني أننا نتقنها جيدا. قد لا ينطبق هذا الكلام على المهاجرين الأوائل، لكن على كوكب التغاير اللغوي، يتم التعلم في مجال ممارسات الغناء والصورة في وقت قصير. وتقوم الحكومة الفرنسية بتنقيح كوكبها الممتزج لغويا عبر انتقاء مهاجرين من مستعمراتها السابقة وإن أدى ذلك إلى إضعاف التغاير اللغوي.

استعمال نادر للغة رئيسية

في كتاب *Kafka, pour une littérature mineure*[2]، يذكر كل من Deleuze و Guattari هذا العجز عن الكتابة والتعبير في لغة غير اللغة الرئيسية للإمبراطورية الاستعمارية. فمثلما نلاحظه لدى شباب الضواحي، لا تتعلق المسالة بالجمهور أو بالسوق بل بضرورة الابتعاد عن المكان الذي أتينا منه للرفع من قيمته والتغني به والتعبير عنه على نحو أفضل. إذ إن النشاط الفني يولد لدى الشخص تضامنا فاعلا مع شعبه، وإن كان هذا الشعب مفترضا، للوقوف في وجه السلطة التي تريد تدميره. وهذا التضامن يستخدم لغة الآخر ويستمد منها المزيد من القوة. هل هذا يعني أنه علينا أن نكتب اليوم بالإنجليزية في المحافل الأوروبية التي تجبرنا في المجالين العلمي والتقني على استخدام تلك اللغة؟ لا، يقول غليسان، لأن الكتابة واللغة مرتبطتان أولا بالمكان الذي نعيش فيه، فهي ممارسة تنبثق من مكان معين ومن التغاير اللغوي الموجود فيه. وتظل أقاليم أوروبا مرتبطة باللغات الوطنية.

أما الأماكن الوحيدة التي يتحقق فيها التغاير اللغوي بين اللغات الأوروبية هي المؤسسات الأوربية مثل المفوضية الأوروبية والبرلمان الأوروبي وكل الشبكات الأوروبية. لكن بسبب التكلفة العالية للترجمة يستحيل تحقيق المساواة بين اللغات، وبالتالي فإن عددا قليلا فقط من اللغات الكبرى يفرض نفسه مثلما هو الحال في الأمم المتحدة. والأمر هنا لا يتعلق بإنتاج فني بل بمفاوضات شاقة بشأن سوق مشتركة. فرضت الإنجليزية نفسها كلغة للأعمال والعلوم لكن تمكنت أيضا الألمانية النمساوية أن تفرض نفسها ضمن بلدان مجموعة سالزبورغ الأربعة عشرة إلى جانب ألمانية ألمانيا، في حين تسعى اللغات المتوسطية كل على حدا إلى فرض نفسها في مجال معين. هذه المنافسة تجري خارج مجالي الأدب والموسيقى.

نحو لغات متعددة الألوان؟

تظل البلدان الأوروبية ولا سيما فرنسا بلدانا أحادية اللغة، في المخيلة، أي كتلا ذات لغة وطنية واحدة تؤخذ جملة واحدة. ولا يحق إلا للسكان الأصليين تمثيل بلدانهم، حتى عندما يتم ذلك عبر لغة الآخرين أو اللغة المشتركة. والمفارقة هي أن الاتحاد الأوروبي عزز العلاقة بين الحق في التعبير ووضعية التمثيل مغلقا الباب أمام الإبداعات اللغوية والفنية المختلطة وأمام التزاوج الذي كان من الممكن أن يتم بين الثقافات الوطنية والأقليات وفي الوقت ذاته يدل إلى هذه السبيل كإحدى السبل التي يمكن اتباعها. وتشهد أوروبا حاليا تعددا كبيرا في اللغات ومحاولات لإيجاد عيوب في هذا النظام الذي قد يقل أو

[2] Gilles Deleuze et Félix Guattari, *Kafka, pour une littérature mineure*, Editions de Minuit, Paris, 1975.

يزيد متانة ولإعادة رسم الحدود ولإيجاد مجالات كبرى للتخاطب. إن المهاجرين الداخليين، أي الذين يهاجرون من بلد إلى آخر داخل أوروبا عبر مسارات تجارية، بدلا من الهجرة من مستعمرة سابقة إلى البلد المستعمر سابقا سيمثلون بلا شك أول تجربة مهمة في هذا الواقع الأوروبي الجديد. إذ سيستقرون، أو بالأحرى سيستقر أبناؤهم، في مواطن أمهاتهم معبيرين عن تاريخهم في تلك الأماكن الجديدة للحياة المشتركة، أماكن قد تكون مشتتة في البلدان الأصلية حيث تتشكل جماعات سكانية جديدة مكونة من مهاجري أوروبا. لا شك أن الأماكن التي سيتم فيها التغني بأوروبا هي بلدان مثل المغرب أو تونس أو الصين أو الفلبين أو البرازيل أو الكاريبي أو مدينة كنيويورك.

ثمة شيء في طور النشأة على حافة التوجهات الكبرى لتطور السكان الأوروبيين يجعل من كل مكان مصدرا ممكنا لابتكار أغنية أوصورة جديدة تجمع بين كل الأبعاد اللغوية لأوروبا بصفة فريدة من نوعها. كغرزة طرز متعددة الألوان تذكرنا بما طرزته النساء اللاتي مررن من هنا.

لمطالعة كل نصوص مجلتنا الإلكترونية عن "لغات الضواحي" – المتوفرة أيضا بلغات أخرى – يمكنكم زيارة هذا الموقع:
http://eipcp.net/transversal/0113